

مالك السعيد أو

(الفيلسوف المجهول)

فضلك بالإجابة على بعض أسئلة سأوجهها إليك؟ فرفع رأسه ونظر إلى ثم قال: تفضل يا سيدي سل عما تحب أن تسأل عنه.

قلت له: إني أراك دائماً تنشد هذه الأغنية «يادني» وأراك بها تتحدى وتتوعد كأنما الدنيا غادرة بك، فبادرني بابتسامة عريضة فهمت منها وداعته وتهكمه، وداعته في حديثه وتهكمه على دنياه. ثم قال سيدي إذا أنا لم أسخر من الدنيا فثق أنها ستجعلني تحت سنايكها، وانها ستتطاول في شقائي وستبادي في تعذبي. شأنها بذلك شأن معاملتها للرعاعيد من الخلق. وأطرق مفكراً وأمسك ملعقة تناولها من إحدى كؤوسه وأخذ يضرب بها يده. فلما سمعت ذلك منه أكرته وعلمت أنه على جانب من الفطنة والذكاء، فدفعتي ذلك الإعجاب إلى استكشاف ما بنفسه قفلت له: — لا بد وأن الدنيا على حد تعبيرك — يا مالك قد تطاولت عليك. فقال: — وهل أكثر من هذا التطاول؟ قفلت له: — زدني إيضاحاً. فقال: — لقد نشأت في بيت كنت بين جنباته قبلة ساكنيه وكنت وحيداً لأب قد وهبه الله من خيراته وأوسع عليه في عيشه، وأم هي كل شيء عند ذلك الأب الحنون يحيط بها عدد وافر من الخدم والإماء وأنا حينذاك طفل يروق لوالدي ما يروق لي ويمقتان مأمقت. ثم أطرق وجعل يسمح شاربه بالملعة وصعد من صدره زفرة عبرت عن كل شيء في نفسه وقال: — وخلاصة القول: قد جاز الزمان على تلك المملكة الصغيرة نخاصم ربها حتى أفنى ما بيده والحقه به، ثم عاد إلى أفرادها ولم يسلم منهم غيري. نعم أنا الوحيد الذي سلمت من مكره، وكنت إذ ذاك على أبواب الصلابة فحاول الهم واليأس أن يسيطرا علي، غير أنني كاخفهما كفاح من رغب في الموت

لقد عاد صوت العربة المزعج يطرق سمعي مرة أخرى، صوت عربة مالك السعيد — على حد تعبيره — «لا مالك الحزين» تلك العربة المكونة من صندوقين خشبيين، وثلاث عجلات، يتوسط جوفها برميل صغير، وإلى جانبه رف من الخشب وضعت عليه بعض كؤوس زجاجية مع سطل صغير. وإن ذلك الصوت من تلك العربة لإعلان بحلول أثقل فصل سنته الطبيعة في نهجها وأحدثته الأرض من دورانها فتحملنا متاعبه وقسوته، ذاك هو فصل الصيف.

كنت واقفاً في فناء البيت عند ما سمعت ذلك الصوت المنبعث من العربة فهرعت مسرعاً لمقابلة ذلك الفيلسوف الفطري «مالك»، وما أن تخطيت الباب حتى رأيته خلف عربته يدفعها بيده ويعلو صوته بأنشودته المحبة عنده: يا دنيى مهما جلبت علي الشقاء

لا أنزعج ولا لج علي لوم

لا بد يدور الفلك وتقتضى

وأزعج ولا لج علي لوم

فاستوقفته وكنت ذا معرفة سطحية به منذ الصيف الماضي إذ كنت أسمع له كلمات يلقيها على عملائه من أطفال الحي الذين يلتفون حول عربته ليتناولوا كؤوس الشراب (الشربت) وكانت تلك الكلمات التي يفوه بها لأولئك الأطفال ذات معان وتأثير يستدل السامع منها على لوعة مالك وذكرياته العذاب لأيام طفولته وعلى ما قاساه أيام صلابته، وكنت قد أضمرت في نفسي مناقشته منذ العام الماضي لاستجلاء حقيقته ولكنني كنت أنتظر الفرص المواتية، وهاهي ذي الفرصة سانحة الآن لسبر غوره.

استوقفته وسلمت عليه فرد على التحية بأحسن منها ومد لي يده مصافحاً كأنه قديم عهد بي، قفلت له تسمح من

فوهبت له الحياة . (وعمر الشق بقی) كما يقال يا عم .
وبعد هذا كله لم يرق لي عيش في تلك البلاد ولم أستسغ
النظر إلى تلك الأطلال . فقلت له : وأى بلاد تقصد فقال :
سهل الجزيرة الاحساء إحدى مشتقات الوطن العربي
الأكبر ، فهجرت مسقط رأسي إلى وطني وتركت وطني
الأول إلى وطني الآخر ، تركت الاحساء إلى الكويت ،
إذ كنت على علم بحالة الحياة فيها وحسن خلق أهلها .
فقلت له : عفواً . حالت وطنك وقدمت قومك وأهلك .
فقال لي بركة وكبرياء : هذا شيء مفروغ منه . وإن وطناً
حن على من لاحق لهم أن ينالوا حنوه من غير بني جلدته ،
فآواهم وأطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ، لجدير به
أن ينحو على أبناء جلدته وأهله . وأنا ابن الضاد . وبلاد
العرب كلها وطن لي ، ويحق لي فيها ما يحق لإخواني ،
وإني ألقيت عصا الترحال في جنبات هذه الأرض الميمونة ،
وأنا سعيد إذ تمكنت من خلق عمل أرزق منه ، وهو ما تراه
أمام ناظريك . فقلت له : — وهل هذا العمل يكفل
عيشك ؟ فأجاب : نعم إنه لكفيل بعيشي وعيش زوجتي
التي وقعت للاقتران بها هنا . فقلت : عجباً ولك زوج
أيضاً ؟ فقال نعم : تزوجت منذ ثمانية أشهر وما تراه من
مرح وبهجة كل ذلك بفضلها ، فهي التي غيرت مجرى
حياتي ، وهي سر سعادتي وسبب شدوي ، وأني بها مالك
السعيد لا « مالك الحزين » الذي يتناقل الصبيان قصته .
وهنا جاء طفل وطلب منه كأساً من الشراب فتناول كأساً
من تلك الكؤوس وغمسه في السطل الصغير ، ثم عاد
فغمسه في البرميل وناولوه للطفل ، فما إن أخذه الطفل وعبه
حتى نظرت إليه فضحك وقال : قد علمت بما ستقول وإني
حريص على هذه الجاذر حرصكم عليها ، ولكن ما العمل
وهذه سنتكم فأنا أعلم أن هذا كأس سم زعاف عند غيري
من الباعة أما عندي فهو شراب مستطاب حيث آتى قد
تعهدت الكؤوس بالتعقيم ، ولولاه ماجرات على مزاوله
هذا العمل الذي أراه عند محترفيه جرماً ، فأنا قد أعددت
هذا السطل الذي تراه — وأشار بيده — ووضعت فيه
(كربونات البوتاسيوم) المحللة في الماء واني أغمس
الكأس فيه بعد فراغ كل مشرب . ولكن ما رأيك في هؤلاء
الباعة الجرمين الذين يعرضون حياة ألوف من نشئنا العزيز

إلى الدمار والاضمحلال ؟ ثم أردف قائلاً : لكن اللوم لم
يكن عليهم بل على من يهجم الأمر : أي على مؤسسات
الصحة العامة ، إذ يجدر بها أن تحرم هذا العمل أو الإجراء
— كما أراه — خير من أن تبنى المستشفيات وتحضر
العقاقير وتجلب الأطباء وتعلم ياسيدي أن « الوقاية خير من
العلاج » وأن هذا النشء أمانة في أعناقنا .

فأكبرت هذه الروح فيه وسألته : هل تحصلت على
شيء من العلم ؟ قال نعم قليل من الفقه والنحو ، وهنا
لاحظت أن فيلسوفنا المجهول قد وهبه الباري عز وجل
ذكاء وفطنة هما سبب تعمقه في أمور ينذر أن يفهمها من
فأفقه ثقافة وعلماً .

وأخيراً انتهى بي المطاف مع الفيلسوف المجهول فودعته
بعد أن اجتليت أمره ودفع عربته وسار بها وهو يردد
أنشودته « يادنيقي » وعدت إلى البيت وأنا أذرع إلى الله
جل شأنه أن يقيض لهذا النشء من ينتشله من هذه
الأخطار ويضرب بيد من حديد على من يقوم ببيع الأرومة
بالنقود على فلذات أكباد الوطن المفدى وما ذلك على
الله بعزيز .

عبد اللطيف العمر

« الكويت »

ذكاء أحمد بن طولون

قبل كان أحمد بن طولون يأكل يوماً في إحدى
حدائقه ، فرأى سائلاً في ثياب رثة ، فأرسل إليه غلاماً
برغيف ودجاجة وشريحة لحم وقطعة من الحلوى .
فرجع الغلام من غير أن يأخذ السائل منه شيئاً ،
فأمر ابن طولون به فأحضر ، وأخذ يسأله ، فأجاب
من غير أن يتلجلج أو يضطرب من هيئته ، فاتهمه بأنه
جاسوس بعض الأعداء ، فاعترف الرجل بذلك .

فقال بعض الحاضرين : هذا والله سحر ! فقال
أحمد بن طولون : ما هو بسحر ولكنني رأيت سوء
هيئة الرجل وإبائه عن طعام يتمنى الشبعان أن يأكله ،
وكذلك رأيت جرأته وثباته فحكمت عليه بما حكمت .